أفعال العباد

للعلامة الشيخ

محمد أمان الجامي

رحمه الله

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

لا نزال في مبحث القضاء والقدر، ويتبع ذلك مبحث أفعال العباد، لذلك درس هذه الليلة وليلة غدٍ إن شاء الله في غاية الأهمية، لذلك ينبغي الاهتمام من الشباب، وإن دلتني أسئلتكم أنكم تابعتم الدرس متابعةً جادة، والأسئلة دلت على أنكم فهمتم الموضوع ورأيتُ تأجيل الإجابة على أسئلتكم إلى ليلة غدٍ إن شاء الله؛ لأن درس هذه الليلة فيه الإجابة على كثيرٍ من أسئلتكم، فلنبدأ بتوفيق الله تعالى في هذا الدرس.

يقول الشارح رحمه الله تعالى: وضلَّ في القدر طائفتان كما تقدم، وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى الطريق الوسط، لم يتطرفوا، لم يفرِّطوا ولم يُفْرِطوا؛ التفريط هو التقصير وزنًا ومعنى، الإفراط: المبالغة، القدرية فرطوا أي قصروا في باب القضاء والقدر، والجبرية أفرطوا، وهدى الله أهل السنة والجماعة إلى الطريق الوسط.

وضلَّ في القدر طائفتان كما تقدم.

الطائفة الأولى: القدرية نفاة القدر؛ القدرية نسبةٌ إلى القدر، نُسبت هذه الطائفة إلى القدر لنفيها للقدر، وقد يقال للجبرية أيضًا قدرية لمبالغتهم في القدر، هؤلاء النفاة الذين هم مجوس هذه الأمة كما ورد ذلك في بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا، تقدم أن قلنا صح الحديث مرفوعًا، وهؤلاء ضلوا بالتفريط والتقصير وإنكار القدر، إنكار المرتبة الأولى والثانية العلم والكتابة، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابتٌ بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسئوليته عن فعله وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته، هذا هو السر في ضلال القوم، لم يستطيعوا أن يوفقوا بين إثبات الاختيار للعبد في فعله ومشيئته، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته؛ إذا كان الله خالق كل شيء وكل شيءٍ بمشيئته، والعبد يفعل ما يفعل باختياره وهو المسئول عن فعله كيف التوفيق بينهما؟ هذا الذي صعب عليهم. لأن ذلك العموم في زعمهم -أي عموم

مشيئته وقدرته- إبطالٌ لمسئولية العبد عن فعله، إذا كان الله هو خالق كل شيء وكل شيءٍ بمشيئته ذلك معناه إبطالٌ لمسئولية العبد عن فعله وهدمٌ للتكاليف -هكذا زعموا.

ومن باب الترجيح في زعمهم أنهم رجحوا جانب الأمر والنهي؛ أي أن العبد مأمورٌ ومنهيٌ عليه أن يمتثل الأمر ويجتنب النهي، وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد، عليه أن يمتثل وينتهي ويخلق أفعال نفسه الاختيارية، خصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد أي: أفعال العباد غير داخلةٍ في خلق الله تعالى، وغير خاضعةٍ لقدرة الله تعالى، فبذلك أثبتوا أن العبد خالقٌ لفعله بقدرته وإرادته، بقدرته المستقلة وإرادته المستقلة وأن أفعاله غير خاضعةٍ لقدرة الله تعالى وإرادته، هكذا زعموا؛ فأثبتوا بذلك خالقين غير الله بلا حساب، الملائكة يخلقون أفعال أنفسهم الاختيارية، والإنس يخلقون، والجن يخلقون، ولهذا سُموا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية، في زعم المجوس يريدون أن ينزهوا رب العالمين من خلق الأشياء الضارة وخلق الشر، فأثبتوا للشر والأمور الضارة كالعقارب والحنشان خالقًا غير الله وهو الشيطان، فالله سبحانه وتعالى إنما يخلق الأمور الطيبة والخير، فجعلوا الشيطان خالقًا مع الله، فكذلك هؤلاء القدرية جعلوا العباد خالقين مع الله.

وأنتم تلاحظون أنهم أسوأ حالًا من المجوس، الذي يجمعهم إثبات خالقٍ غير الله، لكن المجوس أثبتوا خالقًا واحدًا غير الله، وهؤلاء أثبتوا خالقين بلا حساب من الجن والإنس والملائكة، ولذلك سُموا مجوس هذه الأمة، وعرفتم السر لأنهم لم يقدروا ولم يستطيعوا التوفيق بين عموم النصوص التي دلت على أن الله خالق كل شيء وبين إثبات الاختيار والإرادة والقدرة للعبد، لم يستطيعوا التوفيق بينهما؛ لذلك خصصوا النصوص العامة أنها عامةٌ في غير أفعال العباد، فأفعال العباد غير داخلةٍ في عموم هذه النصوص، بل أفعال العباد مخلوقة للعباد، هذا خلاصة مذهبهم.

القارئ: قال رحمه الله: وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: يُقَالُ لَهَا: الْجَبْرِيَّةُ، وَهَؤُلَاءِ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، حَتَّى أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ فِعْلٌ حَقِيقَةً، بَلْ هُوَ فِي زَعْمِهِمْ لَا حُرِّيَّةَ لَهُ، وَلَا اخْتِيَارَ، وَلَا فِعْلَ؛ كَالرِّيشَةِ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ، وَإِنَّمَا تُسْنَدُ الْأَفْعَالُ إِلَيْهِ مَجَازًا، فَيُقَالُ: صَلَّى، وَصَامَ، وَقَتَلَ، وَسَرَقَ؛ كَمَا يُقَالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ، وَجَرَتِ الرِّيحُ، وَنَزَلَ الْمَطَرُ، فَاتَّهَمُوا رَبَّهُمْ بِالظُّلْمِ وَتَكْلِيفِ الْعِبَادِ بِمَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَمُجَازَاتِهِمْ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَاتَّهَمُوهُ بِالْعَبَثِ فِي تَكْلِيفِ الْعِبَادِ، وَأَبْطَلُوا الْحِكْمَةَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

شرح الشيخ: الطائفة الثانية من الطائفتين الضالتين في هذا الباب يقال لها الجبرية، مأخوذٌ من الجبر؛ لأنهم جعلوا العبد مجبورًا لا قدرة له ولا إرادة، وهؤلاء غلوا في إثبات القدر، القدر الذي نفته القدرية هؤلاء غلوا في إثباته حتى أنكروا أن يكون للعبد فعلٌ حقيقة، العبد ليست له أفعالٌ حقيقية، بل هو في زعمهم لا حرية له ولا اختيار، ولا قدرة، ولا فعل، الفعل نفسه ليس فعله، بل هو كالريشة في مهب الرياح يتحرك بغير إرادته، يأتي ويذهب بغير إرادته، وإنما تُسند الأفعال إليه يقال: فلانٌ صلى وصام وحج والسارق سرق والشارب شرب، كل هذا كما يقال: طلعت الشمس وجرت الريح، أي مثل الجمادات، الشمس والريح والمطر وهذه الأشياء ليست لها إرادة.

إذًا العبد مثل هذه الأشياء الجمادات لا إرادة له، وإنما يقال: صلى الصلاة مجازٌ في حقه، والصيام والسرقة والشرب، الخير والشر، كل ما يفعله مجاز ليس بحقيقة، إنما يأتي ذلك بغير اختياره وبدون قدرته وإرادته، بذلك اتهموا ربهم سبحانه بالظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه؛ كلف العباد بالصلاة وهم غير مستطيعين، وكلفهم بالصيام وهم غير مستطيعين، ونهاهم عن السرقة وهم غير مستطيعين، هكذا كلفهم بالأمر والنهي وهم غير قادرين في زعمهم، فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم؛ إذا أثابهم على الخير إنما أثابهم على غير فعلهم، وإن عاقبهم على الشر إنما عاقبهم على غير فعلهم، فلم يفعلوا حقيقةً، واتهموا الرب سبحانه وتعالى بالعبث في

تكليف العباد وأبطلوا الحكمة، ليس لله حكمةٌ في الأمر والنهي والخلق والتشريع، وإنما تقع هذه الأشياء من باب مصادفة الإرادة؛ أراد الله ذلك فتقع الأشياء لكن له حكمة فيما يأمر وفيما ينهى وفيما يشرع وفي العقوبات والثواب لا، نفوا كل هذا، هذه الجبرية.

وهل هذه الجبرية موجودةٌ الآن، وهل القدرية موجودة الآن؟

الجواب: القدرية توجد حيثما توجد الشيعة؛ لأن الشيعة على طريقة المعتزلة، المعتزلة قدرية، كل المعتزلة قدرية، وكل الشيعة معتزلة، إذًا توجد القدرية ضمن وجود المعتزلة (عقيدة الاعتزال)، فعقيدة الاعتزال موجودةٌ حيثما توجد الشيعة، جميع فرق الشيعة من المعتزلة، إذًا القدرية موجودة.

وهل الجبرية موجودة؟ توجد جبريةٌ متسترة، تحت اسم الكسب، الأشاعرة المعاصرة يقولون: العبد له الكسب وليس له الفعل، لا يفعل، الفعل في حقه مجاز، أي الأشاعرة جبريةٌ ولكن لا يسمون أنفسهم جبرية، يقولون: كسبية، كسب الأشعري، أبو الحسن الأشعري لم يسلب العباد القدرة والإرادة والاختيار، أي عند الأشاعرة العبد له قدرة وله إرادة وله اختيار، لكن قدرته غير فعالة وإرادته غير نافذة، عبارة عن الجهاز المعطل، قدرة العبد عند الأشاعرة جهازٌ معطل، وإرادته أيضًا واختياره ومشيئته، ولذلك الفعل في حقه مجاز كما قالت الجبرية تمامًا، إذًا تتفق الجبرية والكسبية –أي الأشعرية الكسبية– يتفقون في أن العبد ليس له فعل، يختلفون في إثبات القدرة وعدم إثبات القدرة؛ الجبرية لا يثبتون القدرة والإرادة والاختيار للعبد، والأشاعرة يثبتون هذه الأدوات لكنها أدواتٌ معطلة لا تعمل.

ما هو الكسب؟ لو سألتَ أي عالمٍ من علماء الأشاعرة لا يستطيع أن يشرح لك الكسب شرحًا يقنعك، بل كلهم يختلفون، لذلك يقال: ثلاثٌ من مستحيلات الكلام: كسب الأشعري، ما هو الكسب؟ إذا وجّه العبد إرادته إلى فعل شيءٍ يفعل الله ذلك الفعل عند توجيه العبد إرادته إلى ذلك الفعل وتوجيه القدرة إلى ذلك الفعل، لم يقع الفعل بقدرة

العبد ولكن بقدرة الله، إذًا الكسب معناه توجيهه ونيته وقصده إلى الفعل، إذا قصد العبد إلى الفعل أوجد الله ذلك الفعل، إذًا علام يثاب وعلام يعاقب؟ على توجيه الإرادة توجيه القدرة، يسمى هذا كسبًا.

وإذا رجعنا إلى اللغة وإلى ما يفهمه بنو آدم لا فرق بين الكسب وبين الفعل شيءٌ واحد، التفريق بين الكسب وبين الفعل أمرٌ غير معقول، لذلك سُمي هذا من مستحيلات الكلام، لتفريقهم بين الفعل وبين الكسب، أثبتوا للعبد الكسب ونفوا عنه الفعل، لذلك دخلت هذه العقيدة على بعض جامعاتنا، استمعتُ إلى شريطٍ يقول فيه الدكتور للطلاب: الفاعل الحقيقي هو الله والعبد ليس له فعل، في هذا البلد، مع هذا الانفتاح واستقدام الدكاترة دخلت الأشعرية الجبرية من حيث لا يشعر المسؤولون عن الجامعات، لأنه في الغالب الكثير المسؤولون عن الجامعات غير دارسين لهذه العقيدة، على الفطرة كشبابنا تمامًا، يأتي الأستاذ فيقف أمام الطلاب، فيظهر لهم تقدير الله حق قدره، فيقول: الله وحده هو الفاعل الحقيقي والعبد ليس له فعل، فيسلم الطلاب لكن لو قيل للأستاذ: أنت عند ما أتيت من منزلك راكبًا سيارتك هذا فعل من؟ دخولك إلى الفصل ووقوفك أمام الطلاب وتكلمك هذا كله أليس هذا فعلك؟ فعل من؟ الطالب لا يقوى أن يسأل هذا السؤال، لذلك الجبرية متناقضة، إذا تعبت مع الجبري الطمه لطمة، تقول له: هذا ليس فعلي لا تلمني، إن عاتبك فقد حوجج، وإلا عليه أن يستسلم، هكذا فعلت الجبرية أي كسب الأشعري مجرد تستر، جبريةٌ متسترة، الأشاعرة الموجودة الآن جبرية متسترة بكسب الأشعري.

عرفنا المستحيل الأول من مستحيلات الكلام؛ **الثاني: طفرة النظام**، النظَّام من كبار علماء المعتزلة، من طفرته زعم أن العالم كله وُجد دفعةً واحدة، آدم وأولاده خُلقوا مرةً واحدة، تقدم آدم ثم جاء أولاده بعده في الظهور، وإلا كلهم خُلقوا دفعةً واحدة، هذه تسمى طفرة النظَّام، كلامٌ غير معقول.

وأحوال أبي هاشم؛ وأبو هاشمٍ كذلك من كبار المعتزلة؛ المعتزلة –كما تعلمون– تنفي جميع الصفات، فهو انفرد بإثبات الأحوال، الأحوال هي الصفات المعنوية التي تثبتها الأشاعرة، أي ينفي السمع والبصر ولكن يثبت كونه سميعًا، كونه عليمًا، كونه حيًا...، هذه عند الأشاعرة تسمى الصفات المعنوية، وتسمى عند أبي هاشم الأحوال، إثباته هذه الأحوال مع نفيه للصفات كلامٌ غير معقول، هذه مستحيلات الكلام.

فلنرجع إلى ما نحن بصدده بعد هذا الاستطراد.

نقول: واتهم الجبرية الله سبحانه وتعالى بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة في الأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون، والأشاعرة الموجودة الآن لا يثبتون الحكمة مثل الجبرية تمامًا، لذلك لاموا العلة التي يسميها النحاة (لام العلة) عندهم لام الصيرورة، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) هذه عند النحاة لام العلة ونحن نسمي لام الحكمة، والأشاعرة يسمون لام الصيرورة، خلقهم ثم صار الأمر فيما بعد إلى العبادة، عندهم في زعمهم ينزهون الله تعالى أن يفعل شيئًا لشيء، لذلك ينفون الحكمة، ويتهمون أفعال الرب سبحانه وتعالى من حيث لا يشعرون بالعبث، كلما نتحدث عن الجبرية والأشعرية داخلة، فليُفهم هذا جيدًا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فَصْلٌ: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩- ١٠]، وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا

يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ المطلق؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾. وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». وَنقولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلاَ يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ.

شرح الشيخ: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مبحثٍ في غاية الأهمية؛ مبحث أفعال العباد، قد ضل في هذا المبحث خلقٌ كثير وزلت الأقدام، ولا يزالون يضلون إلا من عصم الله وقليلٌ ما هم.

من أصول أهل السنة والجماعة، الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة، سلف هذه الأمة والذين اتبعوهم بإحسان، هؤلاء هم أهل السنة، إن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ، قولُ القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، هذا التركيب في النفس منه شيء، فنحن لم نُتعبَد بالألفاظ، ولكن العبارة المعروفة عند أهل السنة والجماعة: الإيمان يتألف من ثلاثة عناصر؛ العنصر الأول المهم: عمل القلب، والعنصر الثاني هو قول اللسان، والعنصر الثالث عمل الجوارح. إذًا الإيمان: اعتقادٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح، هذا الكلام المختصر والمأثور عن السلف.

وكتب شيخ الإسلام رحمه الله نُسخت عدة مرات وكُتبت فنُقلت، لذلك نجد أخطاء كثيرة في المجموع الكبير، مجموع الفتاوى، أخطاء في الألفاظ، طالما الإنسان على يقينٍ في عقيدته وفي منهجه الألفاظ تُصحح، لذلك هذا التركيب في النفس منه شيء، وعلى كلٍ الإيمان عند أهل السنة والجماعة –أو على الأصح عند جمهور أهل السنة والجماعة– يتألف من هذه العناصر الثلاثة، وإنما قلت جمهور أهل السنة والجماعة؛ لأن من أهل السنة

والجماعة من خالف الجمهور، وجعل الإيمان إما مجرد التصديق أو التصديق والقول معًا كما عليه الإمام أبو حنيفة وأصحابه كما تقدم وكما سيأتي، هنا لا نتعجل.

يجب أن نفرق بين التعبيرين؛ مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب جمهور أهل السنة والجماعة. نحن هنا نعبر نقول: الإيمان عند جمهور أهل السنة والجماعة اعتقادٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح، وعند بعضهم وهو خطأ: الإيمان إما مجرد التصديق أو التصديق مع القول والأعمال غير داخلةٍ في مسمى الإيمان، هذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة وأصحابه، وأخطأوا في ذلك، ويعتبر هذا خطأ المجتهدين، لا ينفيهم ولا يخرجهم من كونهم من أهل السنة والجماعة، من أهل السنة والجماعة الذين أخطأوا في بعض الجزئيات، هذه جزئيةٌ أخطأوا فيها، أهل السنة والجماعة ليسوا بمعصومين، إلا في جملتهم هم على الحق، لكن يوجد من أفرادهم أخطاء، أبو حنيفة من التابعين، وقبله شريح، وقبله مجاهد تلميذ ابن عباس الذي عرض المصحف من أوله إلى آخره على ابن عباس يقفه عند كل آيةٍ ويسأل ومع ذلك أخطأ، حصل منه خطأ، من مجاهد، لأنه ليس بمعصوم.

وهل إذا أخطأ مجاهد خطأً، أو شريح أو أبو حنيفة أو أي إمام ننفيه من كونه من أهل السنة والجماعة، ونلحقهم بالمبتدعة؟ فنقول: لا يُترحم عليهم ولا يُستغفر لهم، كأن الترحم عليهم والاستغفار بأيديهم -سبحان الله-، الذين لا يُترحم عليهم ولا يُستغفر لهم هم الكفار والمشركون بالشرك الأكبر، أصحاب الشرك الأصغر يُستغفر لهم ويُترحم عليهم، لأنهم من عصاة الموحدين، إنما الذين لا يستحقون الاستغفار لهم والترحم عليهم هم الكفار وأصحاب الشرك الأكبر، الذين لم يُعذروا في شركهم، مسألة دقيقة وعظيمة يخوض فيها صغار طلبة العلم أو المتعالمون الذين ظنوا أنفسهم أنهم عالمون ويتخبطون، مطباتٍ لا يسير فيها إلا المهرة، ينبغي أن تنتبهوا.

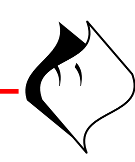
يقول شيخ الإسلام رحمه الله: وأن الإيمان يزيد وينقص، هذا مما امتاز به جمهور أهل السنة والجماعة أيضًا؛ آخذين ذلك من الكتاب والسنة، ينقص الإيمان بالمعصية، ويزداد

بالطاعة، هذا شيءٌ يلمسه الإنسان من نفسه، يقول أبو ذر: من لم يعرف أن إيمانه يزيد وينقص ليس بفقيه، بل من الفقه في الدين أن تدرك أن إيمانك يزيد أو ينقص.

إذا رأيت من نفسك الإقبال على الله والرغبة فيما عند الله، والنشاط في العبادة، ومحبة الصالحين ومجالس العلم هذه أمارات وعلامات على قوة إيمانك وزيادة إيمانك، وإذا رأيتَ منك الإدبار والكسل، وعدم الرغبة في تلاوة كتابة الله وفي ذكر الله، رأيت نفسك دائمًا في تأخر في باب العبادة والرغبة فيما عند الله، هذا دليل على نقص إيمانك، عالج نفسك، أمرٌ ملموس.

وأهل السنة مع ذلك لا يكفِّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي، لا يكفِّرون أهل القبلة - أي المسلمين- بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، إذا ارتكب مسلمٌ كبيرةً أو ابتدع بدعةً أو ترك واجبًا لا يكفرونه، ولكن يحكمون عليه بنقص إيمانه، بأن إيمانه نقص، أي أنه كفر كفرًا عمليًا، كفرًا دون كفر، وليس بالكفر البواح، بل الأخوة الإيمانية ثابتةٌ مع المعاصي، عصاة الموحدين لا تنقطع الأخوة الإسلامية بينهم وبين المؤمنين، ولو شرب الإنسان خمرًا فسكر فحُد، هذه العملية لا تقطع الأخوة الإسلامية بينه وبين المسلمين، وكذلك السارق، وكذلك الزاني، وكذلك المنتهب، كل هؤلاء مسلمون، عصاة الموحدين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]؛ أثبت الله الأخوة بين القاتل وبين المقتول، ما هناك ذنبٌ أعظم من القتل، القتل نفسه لا يزيل ولا يقطع الأخوة بين القاتل والمقتول وأولياء الدم، كلهم إخوة.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، محل الشاهد: (من المؤمنين)، كلام الله واضح، الله يسمي المسرفين، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، لم يقل: أيها الكفار، أيها الفساق، أيها المجرمون، ترغيبًا لهم في التوبة يسميهم عباده، فيضيفهم إلى نفسه



(عبادي)، ما ألطف هذه الإضافة! ومع ذلك يجهل الجاهلون فيكفرون مرتكب الكبيرة، أو يسلبون منه الإيمان، فيخرجونه من الإيمان ثم لا يدخلونه في الكفر –في زعمهم- يبقى في مرحلةٍ انتقاليةٍ بين الإسلام والكفر حتى يموت، أي عند المعتزلة مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام ولا يدخل في الكفر، وعند الخوارج يخرج من الإسلام ويكفر كفرًا بواحًا.

ما الفرق بين الطائفتين؟ فرقٌ شكليٌ صوري، بمعنى عند المعتزلة في أحكام الدنيا لا يُحكم على ماله بالحل ولا على دمه؛ أي أن مرتكب الكبيرة وإن خرج من الإسلام لكنه ليس حلال الدم والمال، حتى يموت، وعند الخوارج حلال المال والدم، ينتظر المعتزلي حتى يموت، فإذا مات ألحقه بالكفار مع الخوارج خالدٌ مخلد، هذا ما نص عليه من سمى نفسه بالحداد في كتابٍ جديدٍ سماه يوم لا ظل إلا ظله، دخل في هذه المطبات فلم يقدر المشي فيها، حسب نفسه عالمًا فإذا هو جاهل يكشف عن جهله، فيخرج الفاسق من الإسلام، فيحكم على نفسه من حيث لا يشعر.

يقولون: جهم بن صفوان كفَّر نفسه بنفسه، كيف ذلك؟ الإيمان عند جهم بن صفوان المعرفة والكفر الجهل، قالوا: لا يوجد أجهل من جهم بن صفوان، إذًا فهو كافرٌ بشهادة نفسه على نفسه، وحدادهم هذا ماذا عمله هنا؟ السب والطعن في علماء المسلمين، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «سباب المسلم فسوق»، يحكم على نفسه أنه فاسقٌ خرج من الإسلام، هو الذي حكم على نفسه فليتحمل، لأن من الفاسق؟ الفاسق مرتكب الكبيرة أو المصر على الصغيرة، هذا هو تعريف الفاسق: من ارتكب كبيرةً كالسرقة وفاحشة الزنا فاسق، ومن أصرَّ على الصغيرة فلم يتب فهو فاسق، هؤلاء جميعًا يحكمون عليهم عند المعتزلة بأنهم خرجوا من الإسلام ولم يدخلوا في الكفر حتى يموتوا فينتظرون الخروج بالموت، فإذا ماتوا خرجوا، هكذا يضر الجاهل نفسه بنفسه من حيث لا يشعر، فيكفر نفسه بنفسه وهو لا يشعر. هذا الكلام له صلة، تتمته –إن أحيانا الله- في ليلة غدٍ إن شاء الله.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى وهو يستدل على إثبات الأخوة بين الفساق وبين المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، مهما تقاتل المسلمون فيما بينهم، ومهما بغى بعضهم على بعض ومهما ارتكبوا الأخوة باقية.

ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية، أهل السنة والجماعة لا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار، المعتزلة يسلبونه الإسلام، وكما قلنا لا يدخلونه في الكفر حتى يموت، والخوارج يسلبونه الإسلام فيدخلونه في الكفر، ويتفقون جميعًا أنهم يخلدونه في النار المعتزلة والخوارج معًا، لذلك قال الشيخ: كما تقول المعتزلة؛ فالمعتزلة يخرجون الفاسق الملي من الإسلام ويخلدونه في النار.

تحدث الرجل في كتابه عن عقيدة الاعتزال، لست أدري هل كان معتزليًا يخفي اعتزاله فظهر في الكتابة، أو الجهل والعجز عن التوفيق بين النصوص هو الذي أوقعه في ذلك، والمعلومات التي لدينا لو صحت أنه كان من جماعة التكفير ثم تسلل إلى هذا البلد، فوجد من يصفق له ويجعله إمامًا، فتأمم، وإلا فهو جاهلٌ من جماعة التكفير، كما جاءتنا أخبارٌ لم نتأكد عن صحتها حتى الآن.

يقول الشيخ رحمه الله: **بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق**. هذه نقطة يجب أن يفهمها طلاب العلم، عندك الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ما الفرق بينهما؟ لذلك سميتها مطبة لا يستطيع أن يسير فيها لا الحداد ولا أمثاله.

ما الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؟

من فرق بينهما لم يتورط هذا التورط، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق، قد يدخل كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾. وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ.

الإيمان المطلق: الإيمان الكامل، إذا قيل: الإيمان المطلق فهو الإيمان الكامل، وإذا قيل: مطلق الإيمان أي ما يطلق عليه الإيمان، الإيمان الناقص، مطلق الإيمان: الإيمان الناقص

الذي يطلق عليه الإيمان لا يخرج إلى الكفر، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، هؤلاء لديهم الإيمان المطلق الكامل، من رزقه الله أنه إذا تلا كتاب الله وجل قلبه، وإذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا تلا القرآن زاده إيمانًا على إيمان، هؤلاء هم المؤمنون حقًا، أي هم المؤمنون الإيمان المطلق الكامل، ومن لم يصل إلى هذه الدرجة لديه مطلق الإيمان، ليس لديه الإيمان المطلق ولكن لديه مطلق الإيمان، لا بد أن نفرق بين الأمرين.

يتضح ذلك من الحديث الآتي؛ وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ». يجب أن نعرف ما نوع هذا النفي، هذا يقال له نفي الكمال، نفيٌ لكمال الإيمان، من تجرأ وارتكب فاحشة الزنا ليس بمؤمنٍ إيمانًا كاملاً، ومن سرق ليس بمؤمنٍ إيمانًا كاملاً، نقص إيمانه بفاحشة الزنا والسرقة وشرب الخمر والنهب، ينقص إيمانه، لأن هذه من الكبائر، من ارتكب كبيرة وهذه من ذوات الحدود بالإجماع من الكبائر، من ارتكب شيئًا من ذوات الحدود والكبائر نقص إيمانه، فبقي في إيمانٍ ضعيف، أو في مطلق الإيمان على الصحيح، أي في إيمانٍ ضعيفٍ يحفظ له اسمه ويحرم دمه وماله، ويحفظ له الأخوة الإسلامية بينه وبين الآخرين، والأمثلة توضح ذلك.

السارق ماذا حكم الله في السارق؟ ما حد السارق؟ قطع اليد، وهل جعل الله حد السارق حد الردة؟ لا، لو كان السارق كافرًا يكون حده حد الردة، وقس على ذلك جميع الأشياء التي فيها الحدود، إثبات الحدود فيها دليل على أنهم لا يزالوا في حظيرة الإسلام ولكن يُعاقبون بهذه العقوبات.

وأوضح من هذا كان يوجد في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابيٌ لطيفٌ محبٌ لرسول الله عليه الصلاة والسلام يكثر من مجالسة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن

لطافته له نكتٌ ينكت للنبي أحيانًا، ومن نكته ذات مرة قدم للنبي عليه الصلاة والسلام عُك من عسلٍ أو سَم، قال له: يا رسول الله، هذه هدية، وهو يعلم بأن النبي يقبل الهدية فأخذه، جاء اليوم الثاني قال: يا رسول الله أعطني ثمن العك؟ قال: يا عبد الله ألم تقل أنها هدية؟ قال: صحيح هدية لكن ما عندي نقود، أخذته بالدين ما عندي نقود، ضحك النبي عليه الصلاة والسلام حتى بدت نواجذه، فأعطاه الثمن، هذا الصحابي قدر الله أن شرب الخمر فأُتي به فجُلد، فشرب المرة الثانية فجُلد، فأُتي به في المرة الثالثة فقال بعض الصحابة: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو سكران! انتبه إلى جواب النبي، ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال: **«لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله»**، على الرغم مما وقع فيه يحب الله ورسوله.

إذًا ارتكاب الكبيرة قد لا يخرج من قلب مرتكب الكبيرة محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام، بشر قُدر عليه فوقع، كلكم تعلمون قصة ماعز الذي ارتكب فاحشة الزنا وهو محصن، فأبى إلا أن يُطهر، كان النبي يريد أن يرجع فيتوب فيما بينه وبين الله، كلما يعرض عنه النبي يأتي من الطرف الثاني يقول: طهرني يا رسول الله، فاعترف بالزنا وهو محصن، حاول النبي عليه الصلاة والسلام ألا يقيم عليه الحد، ليتوب فيما بينه وبين الله، وكان يقول: شموا فمه، لعله شرب، هل هو كامل العقل؟ اسألوا أهله، أصرَّ ماعزٌ إلا أن يُطهر، فطُهر بالرجم حتى شرد فقُتل في الحرة، فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه تاب توبةً لو وُزعت على أهل المدينة لوسعتهم، لو كفر بمجرد أن ارتكب الكبيرة هل يعامل بهذه المعاملة؟ لا، لو كفر فور ارتكابه لم يُعامل هذه المعاملة.

ثم جاءت الغامدية وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله، لا تردني كما رددتَ ماعزًا، ها أنا حبلى، أقم عليّ الحد، في ذلك الوقت لا يقال: اذهبوا إلى شرطة باب شريف ولا في شرطة باب المجيد، ارجعي إلى بيتك حتى تضعي، جاءت بنفسها فرجعت إلى بيتها حتى وضعت، فلفت الطفل في خرقة فجاءت تطلب إقامة الحد، انظروا إلى هذه الطهارة،

وإلى هذا الإيمان، فأمرها النبي عليه الصلاة والسلام أن ترجع إلى بيتها –لا إلى مركز الشرطة– حتى يطعم الطفل ويستغني عن اللبن، فجاءته وفي يده كسرة عيش، فطُهرت بالرجم، فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنها تابت توبةً لو وُزعت على أهل الدنيا لوسعتهم، لو أن المرأة كفرت من أول ما ارتكبت فاحشة الزنا هل يقال فيها هذا الكلام؟ هل تعامل بهذه المعاملة؟ إذًا مرتكب الكبيرة ينقص إيمانه ولا يكفر، لا يزال مسلمًا ناقص الإيمان.

بهذه النصوص تعلمون تخبط الذين يتخبطون من المعتزلة والخوارج.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: وَنقولُ –أي نحن معاشر أهل السنة والجماعة–: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، مرتكب الكبيرة مؤمنٌ ناقص الإيمان، نقص إيمانه بارتكابه الكبيرة، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، يطلق عليه أنه فاسق، لكن فاسقٌ بكبيرته مؤمنٌ بإيمانه، فَلاَ يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، أي الاسم الكامل أو الإيمان الكامل، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ أي: مطلق الإيمان بكبيرته، هذا هو تحقيق المسألة عند أهل السنة والجماعة.

فلنقرأ الشرح.

القارئ: قال الشارح رحمه الله تعالى: **سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا فِي مَسْأَلَةِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَاعْتِقَادٌ بِالْجَنَانِ وَعَمَلٌ بِالْأَرْكَانِ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ دَاخِلَةٌ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، فَالْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الدِّينِ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ، أُصُولُهُ وَفُرُوعُهُ، فَلاَ يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ إِلَّا مَنْ جَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.**

وَلَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ وَالْأَقْوَالُ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ كَانَ الْإِيمَانُ قَابِلاً لِلزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، فَهُوَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ؛ كَمَا هُوَ صَرِيحُ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مُشَاهَدٌ مِنْ تَفَاوُتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِ قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِ جَوَارِحِهِمْ.

وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ أَنَّ اللَّهَ قَسَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فَالسَّابِقُونَ بِالْخَيْرَاتِ هُمُ الَّذِينَ أَدَّوُا الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ. وَالْمُقْتَصِدُونَ هُمُ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ. وَالظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ هُمُ الَّذِينَ اجترأوا عَلَى بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ وَقَصَّرُوا بِبَعْضِ الْوَاجِبَاتِ مَعَ بَقَاءِ أَصْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُمْ.

وَمِنْ وُجُوهِ زِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ كَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُتَفَاوِتُونَ فِي عُلُومِ الْإِيمَانِ، فَمِنْهُمْ مَنْ وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ تَفَاصِيلِهِ وَعَقَائِدِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، فَازْدَادَ بِهِ إِيمَانُهُ، وَتَمَّ يَقِينُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، حَتَّى يَبْلُغَ الْحَالُ بِبَعْضِهِمْ أَلَّا يَكُونَ مَعَهُ إِلَّا إِيمَانٌ إِجْمَالِيٌّ لَمْ يَتَيَسَّرْ لَهُ مِنَ التَّفَاصِيلِ شَيْءٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُؤْمِنٌ. وَكَذَلِكَ هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ، وَكَثْرَةِ الطَّاعَاتِ وَقِلَّتِهَا.

شرح الشيخ: قال الشارح رحمه الله تعالى: سبق أن ذكرنا في مسألة الأسماء والأحكام، هذه المسألة تسمى مسألة الأسماء والأحكام؛ أي المراد بالأسماء مؤمن، كافر، فاسق.. هذه الأسماء، والأحكام: الكفر والإيمان والفسق.

أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قولٌ باللسان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، تلاوة القرآن، ذكر الله.. جميع ما يؤديه العبد باللسان، كله من الإيمان، ذكر الله من الإيمان، التسبيح من الإيمان، والتهليل من الإيمان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان، كل ما تؤديه بلسانك عنصرٌ من عناصر الإيمان، أو شعبةٌ من شعب الإيمان. واعتقادٌ بالجنان أي اعتقادٌ بالقلب: اعتقاد وحدانية الله تعالى، الإيمان بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، كل ما تؤديه بقلبك، أعمال القلوب من المحبة والتعظيم والخوف والرغبة والرهبة كل ذلك من شعب الإيمان. وعملٌ بالأركان أي الجوارح، كل ما تؤديه بجوارحك من الفعل والترك كل ذلك من الإيمان، فعل الواجبات وترك المنكرات،

كل ذلك من شعب الإيمان، وأن هذه الثلاثة داخلةٌ في مسمى الإيمان المطلق، الإيمان الكامل.

فالإيمان المطلق أي الإيمان الكامل يدخل فيه جميع الدين، ظاهره ما تؤديه بجوارحك ولسانك، وباطنه ما تؤديه بقلبك، أصوله وفروعه؛ الأصول: المطالب الإلهية، والنبوات وشؤون المعاد، والفروع التي تؤدي بجوارحك فروع الإسلام كالصلوات والزكاة وغير ذلك، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق الكامل إلا من جمع ذلك كله، ولم ينقص منه شيئًا، هذا المؤمن الكامل.

وليس معنى ذلك أن من نقص يُنفى عن الإيمان، وشعب الإيمان أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الإيمان بضعٌ وستون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، هذه الشعبة هي التي يزول الإيمان بزوالها، وأدناها إماطة الأذى؛ لو أن إنسانًا ترك صخرةً في الشارع قد تقلب السيارة، أو قشرة موزٍ في الطريق قد ينزلق الإنسان فيقع، إن أزال ذلك من الإيمان، يدل على رحمته وشفقته ومحبته لإخوانه المسلمين بما يحب لنفسه، والغافل غفل ومر، نقول له: كافر؟ لا، الذي فعل شعبةٌ من شعب الإيمان، والذي ترك ترك شعبةً لا يكفر بتركها، وبين الشعبتين شعبٌ عظيمة وكثيرة من صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍ وجهادٍ وطلب علمٍ، كل ذلك من شعب الإيمان.

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلةً في مسمى الإيمان عند جمهور أهل السنة والجماعة كان الإيمان قابلاً للزيادة والنقصان؛ كلما يزداد الإنسان في طاعة الله تعالى والعبادة، ويؤدي الصلاة بخشوع يزداد إيمانه، وكلما يترك شيئًا من الواجبات أو يرتكب شيئًا من المعاصي ينقص إيمانه، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة، وكما هو ظاهرٌ مشاهد، مِنْ تَفَاوُتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَعْمَالِ قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِ جَوَارِحِهِمْ، الناس يتفاوتون، ليس إيماننا كإيمان أبي بكر وإيمان عمر؛ لأن أعمالهم غير أعمالنا، أبو بكرٍ يقولون: لم يفق الناس بكثرة صلاةٍ أو صيام، ولكن بما وقر في القلب، قوة

الإيمان عند أبي بكرٍ غير قوة الإيمان عند غيره، وهكذا إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة ينقص الإيمان إلى حد أنه لا يبقى منه إلا مثقال ذرة، «يخرج من النار من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرةٍ من إيمان»، إذًا يزيد زيادة عظيمة، كإيمان رسول الله عليه الصلاة والسلام وإيمان أبي بكرٍ ومن معهم، وينقص كإيماننا اليوم فيصل إلى درجة أنه لا يبقى في القلب إلا مثقال ذرة وهو مؤمن.

من هنا تدركون تطرف هؤلاء المتطرفين الذين بمجرد أن يرتكب الإنسان كبيرة يحكمون عليه أنه كافر، أو فاسقٌ مسلوب اسم المؤمن، هؤلاء جهلةٌ لا ينبغي أن ينخدع الإنسان بأمثال هؤلاء، وبحمد الله تعيشون في بلدٍ فيه العلماء، هم مرجعٌ للمسلمين في كل الدنيا، جميع المسلمين مرجعهم علماءنا، هل من قلة العلماء عندكم أو من زهدٍ واستخفاف بعلمائكم حتى تتبعون كل ناعق؟ الذي ليس لديه علم ويُكبِّر رأسه بالتصفيق؟ لا يا أخي، هذا خطأٌ من شبابنا إن فعلوا ذلك.

يقول الشارح رحمه الله تعالى: وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ أَنَّ اللَّهَ قَسَّمَ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]؛ انظر، (اصطفينا)، ثم قال: (من عبادنا)، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، الظالم لنفسه من عباد الله، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كلهم من عباد الله لكن متفاوتون، فالسابقون بالخيرات هم الذين أدَّوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات بتوفيق الله تعالى، وهؤلاء هم المقربون من عباد الله، المقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات لم يكثروا من النوافل ولم يتجنبوا المكروهات والشبهات، وَالظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ هُمُ الَّذِينَ اجترأوا عَلَى بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ من الكبائر والصغائر، وَقَصَّرُوا فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ مَعَ بَقَاءِ أَصْلِ الْإِيمَانِ مَعَهُمْ، كلهم مؤمنون، المقصر مؤمنٌ مقصر، والمقتصد مؤمنٌ مقتصد،

والسابق مؤمن، درجات، ليس فيهم كافر، كلهم من عباد الله الذين اصطفاهم، فكلهم مؤمنون متفاوتون.

قال الشارح رحمه الله تعالى: ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم ألا يكون معه إلا إيمانٌ إجمالي، فكثير من العوام لم يتيسر له من التفاصيل شيء، مع ذلك فهو مؤمن، وقلت لكم: وردت أحاديث تدل على أن الإيمان يضعف في القلب حتى لا يبقى في قلب المرء إلا مثقال ذرة، وهو مع ذلك مؤمن، وَكَذَلِكَ هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ، وَكَثْرَةِ الطَّاعَاتِ وَقِلَّتِهَا، هذا شيءٌ ملموس، أعمال القلوب من محبة الله تعالى وتعظيمه ومراقبته حق المراقبة، وخشيته في السر والعلن، الناس تتفاوت، وفي أعمال الجوارح يتفاوتون، منهم الذين يحجون كثيرًا، ويصلون كثيرًا ويصومون كثيرًا، ويتصدقون كثيرًا، ومنهم من هو دون ذلك.

القارئ: قال الشارح رحمه الله: **وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ أَوِ النَّقْصِ؛ كَمَا يُرْوَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِ؛ فَهُوَ مَحْجُوجٌ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدِلَّةِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أَعْلاَهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ.**

وَمَعَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ مُرَكَّبٌ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالِاعْتِقَادَاتِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ كُلُّهَا بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ؛ بَلِ الْعَقَائِدُ أَصْلٌ فِي الْإِيمَانِ، فَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِمَّا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ فِي اللَّهِ أَوْ مَلاَئِكَتِهِ أَوْ كُتُبِهِ أَوْ رُسُلِهِ أَوِ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ؛ كَوُجُوبِ الصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَحُرْمَةِ الزِّنَا وَالْقَتْلِ . . إلخ؛ فَهُوَ كَافِرٌ، قَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَذَا الْإِنْكَارِ.

وَأَمَّا الْفَاسِقُ الْمِلِّيُّ الَّذِي يَرْتَكِبُ بَعْضَ الْكَبَائِرِ مَعَ اعْتِقَادِهِ حُرْمَتَهَا؛ فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يَسْلُبُونَ عَنْهُ اسْمَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، قَدْ نَقَصَ مِنْ إِيمَانِهِ بِقَدْرِ مَعْصِيَتِهِ، أَوْ هُوَ مُؤْمِنٌ فَاسِقٌ، لَا يُعْطُونَهُ اسْمَ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، وَلَا يَسْلُبُونَهُ مُطْلَقَ الْإِيمَانِ. وَأَدِلَّةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّةٌ عَلَى مَا

ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ ثُبُوتِ مُطْلَقِ الْإِيمَانِ مَعَ الْمَعْصِيَةِ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فَنَادَاهُمْ بِاسْمِ الْإِيمَانِ، مَعَ وُجُودِ الْمَعْصِيَةِ، وَهِيَ مُوَالَاةُ الْكُفَّارِ مِنْهُمْ . . إلخ.

شرح الشيخ: قال الشارح رحمه الله تعالى: وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وأنه غير قابلٍ للزيادة والنقص، كما يُروى عن أبي حنيفة رحمه الله وغيره من أصحابه فهو محجوجٌ بما ذكرنا مع الأدلة، ومع ذلك -كما قلنا غير مرة- لم يقل قبل هذا الوقت أحدٌ من أهل العلم بأن أبا حنيفة لا يُترحم عليه ولا يُستغفر له، وأنه من المبتدعة، لا، بل معدودٌ من أئمة المسلمين المشهود لهم بالإمامة مع ما وقع فيه من الأخطاء هو وأصحابه.

وبالله التوفيق، وإلى غدٍ -إن شاء الله- في إجابة على أسئلتكم الكثيرة.

س: سئلت غير مرة عن طهارة ذيل المرأة.

ج: لنفهم جميعًا معنى ذيل المرأة.

الإسلام حرم على الرجال أن تنزل ثيابه وملابسه عن الكعبين، وأباح للمرأة المسلمة أن تسحب ذيلها نحو ذراع، كل ذلك محافظةً على عبادتها، لأن المرأة يجب عليها في صلاتها أن تستر جسمها كله ما عدا الوجه والكفين، أي لا يجوز للمرأة المسلمة أن يظهر منها شيء لا من شعرها ولا من جسدها إلا الوجه والكفين، والقدمان من العورة في الصلاة عند المرأة ظاهرهما وباطنهما، لذلك تسحب المرأة ذيلاً طويلاً من عباءتها أو من فستانها نحو ذراع، بحيث إذا سجدت لا ينكشف قدميها، لأن ستر القدمين واجبٌ عليها، فتبطل صلاتها لو انكشف شيءٌ من قدمها، من باطن قدمها أو من ظاهر قدمها، يجب أن تستر ذلك، فإذا جرت ذيلها على النجاسة والقذر كيف تطهر؟ ما طهارة ذيل المرأة؟ ذيل عباءتها وفستانها؟ التراب لا الماء، لا تُكلف أن تغسل بالماء.

لذلك من نظائر ذلك النعلان والخفان، أسفل النعلين لا يجب عليك أن تغسله، وأسفل الخفين، ولا ينبغي أن يفهم بعض الناس أن الخفين اللذين يصلي فيهما المصلي هو الخف الداخلي، يلبس خفًا فوق خوف يسمى جرموق، ويخلع الخف الذي يمشي به في الشوارع فيصلي في الخف الداخلي، لا، تمشي بنعليك حيث شئت وبخفيك، فإذا وصلت إلى المسجد الواجب عليك **«إذا أتى أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر فيهما، فإن رأى فيهما قذرًا فليمسحهما بالأرض، وليدخل بهما، فليصلِ فيهما»**، طهارة أسفل النعلين التراب، وكذلك الخفين، لا يجب على الإنسان أن يغسل أسفل النعلين، بل يطهر بالتراب.

ونعلم جميعًا إن التراب إنما يزيل عين النجاسة ولا يزيل أثر النجاسة، هذه هي النقطة المهمة؛ أثر النجاسة باقٍ، كذلك في ذيل المرأة.

وهل لذلك نظائر؟ نعم، ما هو؟ من النظائر المجمع عليها الاستجمار، فطلاب العلم يفرقون بين الاستنجاء والاستجمار، في عهد النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الاستجمار عندهم كالاستنجاء أي لا يتكلف الإنسان أن يبحث عن الماء، إذا قضى حاجته يستجمر بالأحجار وما في معناها، الاستجمار مع وجود الماء جائز، كانوا يستجمرون والماء موجود، مع ذلك عبادتهم صحيحة، هل الاستجمار يزيل عين النجاسة أو أثر النجاسة؟ العين فقط والأثر باقٍ، فصلاة المستجمر صحيحة، وله أن يصلي بالمستنجي، كما أن صلاة المستجمر صحيحة فصلاة من يبَّس نعليه ودلك بالأرض إذا رأى فيهما قذرًا فدخل بهما وصلى فيهما صحيحة، وصلاة المرأة التي تجر ذيلها على النجاسة ثم تيبس بالتراب فتصلي في ذلك الثوب وفي تلك العباءة فصلاتها صحيحة، هذه أحكام فقهية ينبغي أن يدرسها الرجال ليبينوا للنساء، وإن كان –بحمد الله– النساء بدأن يتعلمن مثل الرجال، وإن كان التعليم اليوم تعليمٌ نظامي ليس بدقيقٍ في الفقهيات، وإنما في العلوم الأخرى، ولكن هذه أمورٌ لا بد أن يعلمها كل مصلٍ.

فلنكتفِ بهذا المقدار، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وآله وصحبه.